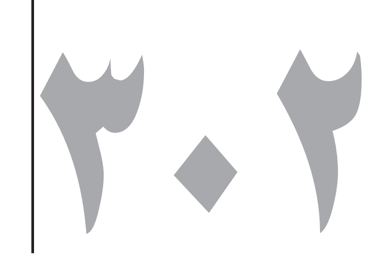
آفاق المعرفة



ضيفة خاتون
ملكة تربعت على عرش التاريخ

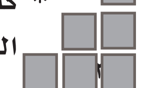
سليمى محجوب *

لكل عصر من العصور التاريخية شخصية لها وزنها وحضورها المنقوش في ذاكرة الأيام والأجيال. وما إن أطل عصر بني أيوب حتى برزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي نجماً ساطعاً. ملأ الدنيا وشغل الناس بحنكتة السياسة، وخبرته العسكرية، وقدرته على توحيد العالم العربي، وصد الحملات الصليبية عن بيت المقدس، وردها على أعقاب الخيبة والخذلان في معركة حطين الشهيرة.

---

* كاتبة وباحثة (سورية).

العمل الفني: الفنان أحمد الياس



استــولى «صلاح الدين» علــى حلب عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م وأناب عنــه في حكمها أخاه «الملك العادل أبا بكر بن أيوب» ،فأحسن إدارة شؤونهــا وصـــلاح أحوال رعيتهــا فازدهرت حلــب في جميع مناحي الحيــاة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعمرانية.

وفي حلب الشهباء وفي ظل حكمه الميمون رزق الملــك العادل ابنة قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في حياة هــذه المدينة، وأصبحت جزءاً جوهريــاً من تاريخهــا لمساهمتهــا في أهم أحداثها، وما حققته من إنجاز رائع في حقلي الفن والثقافة.

فكانت تجسيــداً للفكر والعقل الإسلامي الذي تجلى في أعمالها الإنسانية والتي بلغت ذروتها في بناء مدرسة الفردوس، ذلك الصرح التاريخـــي الذي يعتبر من أقــدم آثار مدينة حلب القديمة وأجملها وأكملها.

إنهــا الملكــة «ضيفة خاتــون» بنت الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي وقد سماها بهــذا الاســم تيمناً بزيــارة أحــد الضيوف الأعزاء حين زفت إليه بشرى ولادتها. ولدت «ضيفة خاتون» سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمئــة في قلعــة حلب المهيبــة، ونشأت الفتاة في بيت الملــك، وتعهدها والدها الملك العادل وحاشيته بــكل رعاية ومعرفة وتربية راقيــة. ثم لم يلبــث أن اصطحبهــا معه إلى مصر. حيث تــولى الحكم مكانــه في مدينة حلب السلطان غازي الذي ولد بالقاهرة عام ٥٦٨هـ ودفن في قلعة حلب عام ٦١٣هـ [(١)] كان ملكاً مهيبــاً، له سياسة وفطنة ودولة معمورة بالعلماء والفضلاء، وكان محباً للعلماء مجيزاً للشعــراء. وقد قدر لهذه الفتــاة الأيوبية أن تصبح زوجاً للملك الغازي، بعد أن كانت ابنة ملك، وحفيدة ملك. فكيف حدث ذلك.

كان «الملــك الظاهــر غــازي» ،وقدرزئ بوفاة زوجه «غازية » بنت الملك العادل فحزن عليها حزناً شديداً. لكنه لم يلبث أن أرسل عام ٦٠٨هـ/١٦١١م القاضي بهاء الدين بن شداد ليخطب له ابنة عمه «ضيفة خاتون» .

فتمت موافقة أبيهــا، وعقد قرانها على الملــك غازي علــى مهر قــدره خمسين ألف دينار، وبذلك أصبحــت «ضيفة خاتون» ابنة ملك وزوجة ملك أيضاً.

وفي موكب رسمي انتقلت «ضيفة خاتون» من مصــر إلى حلب مسقــط رأسها، مروراً بمدينة دمشــق حيث التقــت القاضي «بهاء الدين بن شداد».

وفي حلــب استقبلتها العساكــر الحلبية، وهفــا لمقدمها الملك غازي يحضنها بكل ود وإكرام. وحظيــت لديه بمكانة سامية،ولا سيمــا بعد أن ولدت له الملــك العزيز محمد



سنـــة ٦١٠هـ. حيث بقيت حلب ترفل بالزينة والأنـــوار، ويتنعـــم أهلهـــا بأطايـــب الطعام والشراب والصلات المادية والنعم التي أغرقت جميع طبقات الشعب. فقد «سيرت إلى المدارس والخوانق الأغنام والذهب لإقامة الولائم. ثم فعل ذلك مع الجنـــد والغلمان. وأقام للنساء دعـــوة مشهورة، أغلقت لها المدينة. وأما داره في القلعة فقد زينها بالجوهر وأواني الذهب. كمـــا ذكر ذلك ابن العـــديم في تاريخه «زبدة الحلـــب في تاريـــخ حلـــب » .وهـــذا كله مما يشير إلى مكانتهـــا وصفاتها العالية والراقية الجديرة بكل تقدير واحترام.

وفعـــلاً لقـــد استطاعت الملكـــة «ضيفة خاتـــون» أن تحكم حلـــب بشخصيتها القوية وأرائهـــا السديـــدة بعـــد وفاة زوجهـــا الملك الظاهـــر غازي عام٦١٢هـ. حيـــث كان يدير الحكم بعده الأتابك طغـــرل بك ريثما يشتد عود ابنها الملـــك العزيز محمد. لكن محمداً توفي عام٦٢٤هـــ/١٤٢٦م فـــآل الحكم إلى« ضيفة خاتون» وأصبحت ملكة تتصرف بالملك تصرف السلاطـــين وتؤديه على أحسن وجه. وكانـــت مدة توليها الملك نحو ست سنين ،كما ذكر الطباخ في كتابه [٢]

قال الصلاح الصفـــدي في كتابه الوافي

بالوفيــات في حوادث سنة ٦١٣هـ «فيها توفي الملــك الظاهر غــازي بن يوسف بــن أيوب صاحب حلب. ويذكر جملــة صفاته أنه كان محسناً إلى الرعية، وحضــر معظم فتوحات والده صلاح الدين» أعطاه والده ملك حلب. فقــرب العلمــاء والأدباء والشعــراء وأغدق عليهم ومما لاشك فيه أن «ضيفة خاتون» قد تأثــرت بزوجها واكتسبت منه صفات كريمة، وسياسة حكيمة.

ويضيف الصفدي:«إنــه لما اشتدت عليه ـــأي الملــك غازي ـــعهــد بالملك لولد له صغير اسمه محمد، ولقبه الملك غياث الدين عمره ثلاث سنوات وعدل عن ولد كبير. كما يقول ابن الأثــير. لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد.

فعهد بالملك للصغــير ليبقي البلاد عليه ولا ينازعه فيها أحد وحين اشتد المرض على الملك الظاهــر أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز.

كان الملك العزيز في الثالثة من عمره حين توفي أبوه فعهد في تربيته لشهاب الدين طغرل الخادم، إلى أن ترعــرع واستقل بالأمر، لكن الملك الشاب توفي سنة ٦٣٤هـ وهو في الثالثة والعشريــن. فــآل الأمر إلى والدتــه «ضيفة خاتــون» التي أصبحت ملكة حلب وقد قامت بالملك أحسن قيام كما تقول كتب التاريخ.

كانت «الملكة ضيفة خاتون» ضوءاً أخضر لكشف ظلمــات الجهل وفتح مجالات التعليم والتثقيف المعرفي والديني. وبقيادتها المميزة والحكيمة ازدهرت مدينة حلب في كل جوانب الحياة.

لقــد تميــزت «الملكــة ضيفــة خاتون» بأخلاقها الرفيعة، واشتهرت بالسخاء والكرم. والإغــداق على الفقــراء والعطــف عليهم، وتقريب العلماء وإكرامهم، مما جعلها تحظى بمكانة سامية بين ملوك بنــي أيوب. فكانوا يقدرونهــا ويحترمونها ويمثلــون لأوامرها، ويقبــل رسلهم الأرض بــين يديها، كما يقول ابن العديم في كتاب «زبدة الحلب».

كذلك اهتمت الملكة بنشر العلم في مملكتها الحلبية، ومن أبرز آثارها التي خلفتها الأيام مدرسة «الفردوس» الواقعة خلف باب المقام. وقد جعلتها أيضاً تربــة و رباطاً. وكان ذلك عام ٦٣٣هــ/١٢٢٥م. ورتبت فيها عدداً من

القــراء والفقهاء، والصوفيــة. بالإضافة إلى وجود زاوية لتدريــس الحديث الشريف كما يشير ابن شداد .وكانــت تدرس على المذهب الشافعي.

إن ضيفــة خاتون الملكة التــي كانت ابنة ملك وزوجة ملك وأم ملك استطاعت أن تنال الألقاب السنية التــي تليق بفضلها ومكانتها في تاريخ الدولة الأيوبية.

وقــد وردت هــذه الألقــاب مكتوبة على جداري مجمع الفردوس كما يلي:

الشــرف الرفيع والحجــاب المنيع، الملكة الرحيمة، عصمت الدنيا والدين.

أما كلمة(خاتون) فــترادف كلمة (هانم) التركية. ولا تزال تستعمل هذه الكلمة في بعض البلدان العربيــة ومنها العراق. وخاتون لقب يطلــق على كل امــرأة ذات مكانة اجتماعية مرموقة.

وتعتــبر الملكة «ضيفة خاتــون» ثاني ملكة في الإســلام بعد «أروى بنت أحمد ابن جعفر الصليحية» التي تزوجها المكرم وفوض إليها تسير الأمور فقامت الملكة أروى بتدبير شؤون الحكم ،وظلت تمارســه بعد وفاة المكرم عام ٥٤٨هــ/١٠٩١م. وكانت ترفــع إليها الرقاع ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمــن. ولها مآثر وسبل وأوقاف كثيرة. وهي آخر ملوك الصليحيين. وكأنما الملكة الأيوبية كانت مضطلعة على سيرة الملكة اليمنية أروى فسارت على نهجها.

روعة الفــن في مدرســة الفردوس :لئن كانت الآثار معالم تخلد منشئيها. فإن مدرسة الفردوســ قد خلدت الملكة ضيفة خاتون ولا تزال شاهدة على مآثرها وآثارها.

تعتبر من أجل الأبنية التاريخية لما تتصف به من ميزات معمارية. وقد جعلتها كما قلنا مدرســة وتربة ورباطاً. ورتبت فيها خلقاً من القراء والصوفية والفقهاء فكانت جامعة من جامعات العصــر. كما أشادت خانقاها رائعاً في المدينة القديمة داخل باب الأربعين، تجاه مسجد الشيخ حافظ عبد الرحمن.

لقــد نالــت مدرســة الفردوســ شهرة واسعة الروعــة بنائها، ولا تزال عامرة تزهو بمحرابها الملون الأنيــق. وعمودية المرمريين «مما يستوقف الناظر لحسن صنعه، وبراعة هندسته، وإحكام بنائه »

وهو أثــر عربي في مدينة الشهباء يتجلى فيه مــا وصل إليه فن البناء في ذلك العصر من الرقي.

أنشــأت الملكــة «ضيفة خاتــون» مدرسة الفردوس عام٦٣٣هـ/١٢٣٥م وقد حفر تاريخ هذا الإنشاء على الجدار الشرقي الخارجي، وعلى الجــدار الداخلي شرقي الباحة. وجاء فيه بعد البسملة.

«هــذا ما أنشأتــه الستر الرفيــع، والدة السلطان الملك العزيــز ابن الملك الظاهر في أيــام مولانــا السلطان الملــك الناصر صلاح الدنيــا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن غــازي بن يوســف بن أيــوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ذكره».

أمــا على جــدران الإيوان فقــد نقشت نصوصــ أخرى تحث على العبادة كما أمرت بذلك ضيفة خاتون ومنها:

«لله ورد أقوام إذا جن عليهم الليل سمعت لهم أنين وألحــان، وإذا أصبحوا رأيت عليهم تغير ألوان»

إذا مـا لـلـيـل أقـبـل كـابـدوه
ويـسـفـر عـنـهـم وهــم ركــوع
أطــار الـشـوق نـومـهـم وفـقـامـوا
وأهــل الأمــن في الـدنـيـا خشوع

أجسادهم تصبر علــى التعب، وأقدامهم ليلهــا تقيم على التهجد، لا يــرد لهم صوت ولا دعاء [٢]

وأمــرت الملكة أن تكتــب على البوابة من جهة اليمين آيات قرآنية جاء فيها:

«بســم الله الرحمن الرحيم. يا عبادي لا خــوف عليكم اليوم ولا أنتــم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ».

وفي الوسط كتب: «يطاف عليهم بصحاف مــن ذهب وأكواب وفيها مــا تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » .

المدرسة فيهــا زخارف كثيرة تدل على ارتقــاء فــن البناء في العهــد الأيوبي، وعلى حرص الملكــة العظيمة على إخراج مدرستها بكامل زينتها. فقد استعمــل في بنائها ألواح رخاميــة متشابكة، تبــدو في المحراب، ومقر نصات تزيــن المدخل والأعمدة والقباب، إلى جانب زخــارف نباتية ناعمة، تبدو في أروقة المدرسة، وبركتها المثمنة المفصفصة.

وبهذا يمكن أن نقول أن مدرسة الفردوس التــي يقترن اسمهــا باســم مؤسستها ضيفة خاتون تشكل قفزة ثانية في فن عمارة المدارس بعد المدرسة الظاهرية.

كما أنها تعتبر أول مجمع تعليمي بني ليس على نطاق مدينة حلــب فقط وإنما بالنسبة للعالم الإسلامــي. وقد أشــاد المؤرخون عبر

التاريخ بجمال ومتانة هذه المدرسة وصمودها في وجه عاديات الزمان. ومنها الزلزال الذي ضرب حلب عام ١٨٢٢م والذي دمر نصف مباني مدينة حلب القديمة، ولم يمس المدرسة بسوء. وقد ترك لنا المستشرقون ممن اهتموا بعمارة المدارس في حلب ومنهم (سوفاجية وهرتزفيلد) مخططات وصور لمدرسة الفردوس التي حافظت على أغلب عناصرها الأساسية حتى الوقت الحاضر.

لقد انتقلت الملكة ضيفة خاتون إلى بارئها في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من عام ٦٤٠ للهجرة ودفنت في قلعة حلب مسقط رأسها. ولكن ظل ذكرها خالداً وحضارياً في نسيج حجارة لا تزال تحمل عبق التكوين المعماري الرفيع لصرح صنع ثقافة وفناً وفكراً وتاريخاً لمدينة حلب الجالسة على عرس عاصمة الثقافة الإسلامية بجدارة واستحقاق. ■■

المصادر

١- الوافي بالوفيات حوادث /سنة٦١٣/ للصلاح الصفدي.

٢- النص ذكر كاملاً في كتاب الغزي «نهر الذهب في تاريخ حلب» ج ٢ ص ٢١٩ــ٢٢٠ وفي إعلام النبلاء للطباخ ج ٢ ص ٢١٤

٣- زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم.

٤- سيرة الملك الظاهر لابن شداد محمد.

☆ ☆ ☆